قالت العرب

هل عندك شك أن دخولك في قلبي
هو أعظم يوم في التاريخ
وأجمل خبر في الدنيا
هل عندك شك فيمن أنت
يا من تحتل بعينيها اجزاء الوقت
يا امرأة تكسر ، حين تمر جدار الصوت

(نزار قباني)

المشهد
العدد 337 - السنة الثالثة عشرة -الأحد 10 نوفمبر 2024 م الموافق 8 جمادى الأولى 1446 هـ

هوشنك أوسي: الأنظمة الفاشلة تجعل الأوطان سجونًا أو حظائرَ أو مقابر

ركبت قوارب الموت وبقيت في سجن المهاجرين غير الشرعيين باليونان 45 يومًا تعرّفت فيها على مصريين من المحلّة والفيّوم والمنوفيّة والصعيد

يتنوع إنتاج السوري هوشنك أوسي الإبداعي بين الشعر والرواية والقصة القصيرة، ولد في قرية صغيرة «الدرباسيّة» على الحدود السورية التركية، وهرب من سوريا مضطرًا إلى تركيا بعد مطاردة النظام السوري له بسبب مقالاته السياسية، ومن تركيا سافر إلى اليونان في رحلة صعبة حتى انتهى به المطاف مواطنًا في بلجيكا. وسط هذه الظروف الصعبة نشر أوسي عشرة دواوين شعرية وستة روايات، وفاز بجائزة كتارا، وكان لجريدة «المشهد» هذا الحوار معه الذي تناول فيه مشاهد من حياته وإبداعه ورؤيته للعالم وإليكم نصه:

● من الضفة الأخرى في بلجيكا كيف ترى حالة السرد والإبداع العربي عمومًا؟

أراها في حالة جيّدة. أشعرُ بالتفاؤل حين أشاهدُ تزايدَ عدد الساردين والساردات. مجملُ ما يُكتَب وينشر في العالم العربي، ماذا يساوي مقارنةً بما يُكتبُ ويُنشرُ في بلد كبلجيكا أو فرنسا أو إسبانيا أو ألمانيا أو بريطانيا أو أمريكا؟ من طبائع الأمور أنّ وفرة وغزارة الإنتاج، ستكون مصحوبة بنسبة أقلّ من الجودة. وضمن نسبة الجودة تلك، سيكون الإبداع قليلاً. ليس كلّ نصٍّ جيّد إبداعٌ بالضّرورة، بينما كلّ نصّ مبدع حقيقيٌّ فيه ما فيه من الجودة وطزاجة الفكرة واختلاف التقنيات، ومرونة اللغة، وخصوبة الخيال.

أسُّ الإشكال ليس في الوفرة والغزارة - إذا كان اعتبار ذلك مشكلة - بل في عمليّة الفرز والغربلة المنوطة بحركة النقد. ذلك أنّه إذا فَسُدَ ملح النقد، فَسُدَت الذّائقة العامّة، واختلط الحابلَ بالنابل، والغثُّ بالسمين، والإبداع بنقيضه. ثمّة نُقّاد، يُعلون من شؤون ومقامات نصوص متواضعة لجملة من الأسباب، ويَضعونها في مقام الإبداع بشكل تعسُّفي، ويستسهلون إلقاء أحكام القيمة النقديّة الرهيبة عليها، وينسبون إليها ما ليس لها، ويسبغونها بالأوصاف الكاملة. وحين ينتقد ناقد ما تلك النصوص، مع إظهار مكامن العلل والزلل والعيوب التي إمّا تجاهلها الناقد الأوّل أو لم يرها، نجد أولئك النُّقاد، إمّا يهرعون للدفاع عن تلك النصوص المتواضعة، دفاعًا عن أنفسهم، أو يلتزمون الصمت، تفاديًا الحرج وحفظ ماء الوجه. خلاصة قولي: دائمًا وعلى مرّ العقود والسنوات؛ الإبداع قليل وسيبقى هكذا، والنقد الأصيل القويم المُنصف، أيضًا قليل، وسيبقى هكذا.

●كانت رحلة خروجك من سوريا ذات طابع هيتشكوكي، فاحك لنا عن تلك الظروف التي دفعتك إلى السفر؟

لم يكن سفرًا، بل هروبًا من وطني، بسبب الملاحقة الأمنيّة والاعتقال، نتيجة مواقفي الناقدة والمعارضة لنظام حزب البعث في سوريا. مقالاتي السياسيّة الناقدة المنشورة في الصحف العربيّة (الحياة، المستقبل، السياسة نموذجًا) معطوفًا عليها مواقفي الداعية إلى الديمقراطيّة والإصلاح الجدّي الحقيقي، ودعم ومساندة حقوق الكرد السوريين وحقوق المواطن السوري بشكل عام، ورفضي جعل سوريا مزرعة أو عزبة مُلكيّة خاصّة لآل الأسد، يتوارث الحكم فيها من الآباء للأبناء، كذلك مواقفي الناقدة للنظام التركي والإيراني ومطالبتي بالديمقراطيّة الحقيقيّة في تركيا وإيران...، كل ذلك جعلني عرضة للاستدعاء الأمني والتحقيق لدى المخابرات السياسيّة والمخابرات العسكريّة عدّة مرّات. وفي نهاية المطاف، داهمت المخابرات الجويّة (المعنية بحماية رأس النظام السوري) منزلي في دمشق بهدف اعتقالي، وبمحض الصدفة لم أكن متواجدًا في المنزل لحظتئذ. تواريت عن الأنظار لخمسة أشهر، ثم غادرت بلدي في نهاية يونيو ٢٠٠٩ إلى تركيا، ومنها إلى جزيرة "خيوس" اليونانيّة على متن زوارق الموت المطاطيّة. تعرّضتُ للضرب والإهانة من خفر السواحل اليونانيين. بقيت في سجن المهاجرين غير الشرعيين نحو ٤٥ يومًا تعرّفت فيها على مصريين من المحلّة والفيّوم والمنوفيّة والصعيد، وتعرّفت على تونسة، مغاربة، جزائريين وعراقيين...! أعيد ترحيلي إلى تركيا مع جمهرة من اللاجئين، أودعت سجن مدينة "أدرنة"، وبقيت فيه ١٥ يومًا، وتعرّضتُ للضرب من قبل الضابط المسؤول في السجن. بداياتُ حياة اللاجئ المهاجر مهينة وربّما تكون مميتة.

ثم عشتُ في اسطنبول قرابة عام ونيّف. وقتذاك كان نظام أردوغانَ "سمن على عسل" مع نظام بشّار الأسد، وصرتُ شخصًا غير مرغوب به في تركيا أيضًا. الأتراك كانوا يعرفونني نتيجة مقالاتي المنشورة في الصحافة العربيّة، المترجمة إلى التركيّة وتنشرها الصحافة المعارضة لأردوغان. تصوّر أن مفوضيّة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة منحتني اللجوء السياسي، بينما الأتراك كانوا يرفضون منحي الإقامة المؤقّتة لإتمام إجراءات السفر واللجوء إلى بلد ثالث. اضطررت إلى مغادرة تركيا مجددًا على متن زوارق الموت إلى اليونان، ومنها جرّبت السفر بالشاحنات إلى إيطاليا وفشلت، ثمّ نجحت في الوصول إلى بلجيكا والاستقرار فيها.

الآن، بعد مضى ١٤ عامًا، أنا مواطن بلجيكي. باختصار: رحلتي من بلدتي الصغيرة (الدرباسيّة) النائية على الحدود السوريّة - التركيّة إلى دمشق، ثمّ إلى تركيا فاليونان، ثم تركيا، وعودة جديدة إلى اليونان، وصولاً إلى بلجيكا، أكثر من نصف عمري قضيته نازحًا مهاجرًا. وكأنّنا أبناء الشرق الأوسط، نعيش لننزح ونهاجر، إمّا قسرًا أو طوعًا. جزءٌ من رحلة نزوحي تلك، ضمّنته في روايتي الثالثة "الأفغاني: سماوات قلقة". حين كتبتُ عن الهجرة وزوارق الموت والمعارضة السياسيّة المباشرة سواءً في مقالاتي أو رواياتي، فلأنّني عشتُ تلك التجارب التي أضافت إليَّ الكثير. الحياة يا عزيزي، هي أن تبقى مهاجرًا بين الأوطان والأفكار والنصوص والنساء، حبًّا وليس كرهًا.

● كيف ينظر البلجيك بشكل خاص للأدب العربي، وهل هناك أسماء عربية معروفة لديهم.

- باعتباري عضو نادي القلم البلجيكي (PEN Vlaanderen) وهي مؤسسة ثقافيّة غير ربحيّة، تابعة لنادي القلم الدولي (PEN International) المعنيّة بدعم الكُتّاب والأدباء المضطهدين، نظّم نادي القلم البلجيكي ندوات وأمسيّات أدبيّة للتعريف بالكُتّاب والأدباء الأجانب (عرب، كُرد، فرس، ترك، أفارقة...) وتقديمهم للوسط الثقافي البلجيكي. كما تمّ دعم العديد من الكُتّاب والشعراء العرب. خلاصة القول: يُنظر إلى الأدب العربي والثقافة العربيّة بشكل إيجابي في بلجيكا. هناك أقسام لتدريس اللغة والأدب العربي في الجامعات البلجيكيّة. هناك كرسي خاص بالشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش في إحدى الجامعات البلجيكيّة. بلجيكا بلد صغير متنوّع الثقافات، لذا ينظر باحترام إلى الثقافة العربيّة والتركيّة والكرديّة أو أيّة ثقافة أخرى. في حوار لي مع صحيفة (De Standaard) طالبت فيه باعتبار اللغات العربيّة، الكرديّة والتركيّة لغات رسميّة في الدولة إلى جانب اللغات الهولنديّة والفرنسيّة والألمانيّة، نظرًا للنسبة العاليّة للأجانب من أصول عربيّة وتركيّة وكرديّة في بلجيكا.

بخصوص الأسماء الأدبيّة العربيّة المعروفة في بلجيكا، أشتغل الصديق العزيز والشاعر المغربي - البلجيكي طه عدنان، على كتاب أنطولوجي تحت عنوان «هذه ليست حقيبة» ضمّنه نصوص ١٧ كاتبًا وكاتبة عرب يعيشون في بلجيكا، كان لي شرف المشاركة فيه بنص، بصفتي أكتبُ بالعربيّة. صدر الكتّاب باللغة العربيّة، كما صدرت ترجمته الفرنسيّة أيضًا.

● كيف استطعت التأقلم مع الحياة في الغرب وما أبرز الصعوبات والتحديات التي تواجهها؟

ما زلت أحاول التأقلم. الحاجز أو الصعوبة الأبرز هي اللغة، وطرائق التفكير المختلفة بيننا كمشرقيين وبينهم كغربيين. لا أعتبر نفسي أجنبيًا، بل أسعى لأن أكون قيمة مضافة إلى المجتمع البلجيكي. بلجيكا منحتني الكثير ممّا كنتُ محرومًا منه في بلدي الأوّل؛ الحريّة، الأمان، الحياة الكريمة، لا بوليس يداهم منزلي بغرض اعتقالي على خلفيّة مواقفي السياسيّة، لا مخابرات تحقق معي، لا نظام سياسي حزبي عائلي طائفي أبدي، يجرّدني من الجنسيّة والحقوق المدنيّة لأنّني كردي، لا نظام استبدادي يُحرّمُ عليّ تسجيل أولادي بالأسماء الكرديّة، ويسعى إلى تعريبي قهرًا وقسرًا...، لا خطوط حمراء أمام حركة أفكاري وخيالي طالما أنّني لا اعتدي على حريّات الأفراد والمجتمع واحترم القانون والنظام العام. الأوطان لا تجور على شعوبها، بالأنظمة الفاشلة والغاشمة التي تجعل من الأوطان إمّا سجونًا أو حظائرَ أو مقابر. كذلك الأنظمة الديمقراطيّة هي التي تحوّل الغربة إلى وطنٍ يمنحُ المغتربَ أو المهاجر أو اللاجئَ الإحساس بالكرامة والكينونة وأنّه يمتلك الأرضَ التي يعيش عليها.

● ما الذي أضافه لك كأديب سفرك إلى أوروبا وما الذي خسرته ببعدك عن وطنك الأم؟

أكرر؛ هاجرت قسرًا وكرهًا، وليس رغبةً في السّفر. الآن وأنا مواطن بلجيكي، أسافر إلى بلدان وأوطان عديدة، منها مصر التي أحبُّها. هل تعلم أنّني في سوريا كنتُ ممنوعًا من السفر، بسبب تجريدي من الجنسيّة، لـ"جرم" وحيد لا علاقتي به، هو أنّني ولدتُ من والدين كرديين! تصوّر أنّك تجرّد من الجنسيّة المصريّة لأنّك نوبي أو من أصول أمازيغيّة أو يونانيّة أو تركيّة! هذه المهزلة، جزء من التراجيديا عشتها وعاشها عشرات الألوف من الكرد في سوريا. وحين تعترضُ أو تنتقد هذه الحال المزرية، يصفونك بالانفصاليّة والخيانة... والتعامل مع العدوّ! كم هو مضحك ومخزٍ، أليس كذلك؟!

أضافت إليَّ بلجيكا الكثير وأنا ممتنٌّ لها، وأشعرُ بمديونيّة تجاهها. لذا، أهديت روايتي الأولى "وطأة اليقين" إلى مدينة "اوستند" البلجيكيّة التي أعيش فيها. كذلك مصر، فلسطين، تونس، اليونان، تركيا، كردستان العراق، الإمارات، قطر، وكل البلدان التي سافرت إليها، أضافت إليَّ الكثير. ويبقى التكوين الكردي أساس وإطار انتمائي المنفتح على كلّ الأوطان. لذا؛ بلادُ الأدب أوطاني، من الشِّعر إلى النثر، فالرواية مسكني وعنواني.

في سوريا كنتُ ممنوعًا من السفر بسبب تجريدي من الجنسيّة لـ«جرم» وحيد لا علاقتي به هو أنّني ولدتُ من أبوين كرديين

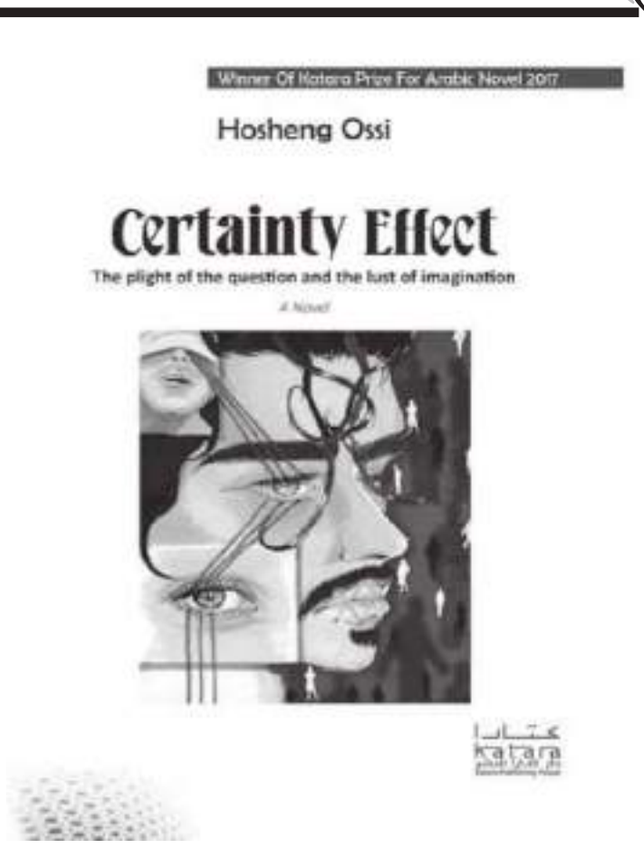

منطقة الشرق الأوسط مصابة بلعنة الحروب العبثيّة تحت بريق شعارات خادعة وكاذبة عقائديّة دينيّة قوميّة وطائفيّة

● جمعت بين الشعر والسرد القصصي والروائي فهل ترى معي إنّ أحدهما يخصم من رصيد الآخر، أم هي عملية إبداعية متكاملة؟

- في البدء كان الشّعر. جرى ذلك في بلاد الإغريق وفي "سومر" وبلاد الكرد والفرس والعرب، وعليه، أكاد أقول: "الشّعر أبو الفنون" وليس المسرح. والشعر كان ديوان الشعوب التي ذكرتها وليس فقط ديوان العرب. صحيح أنّ أفلاطون بدأ شاعرًا، ثمّ طلّقه وهجره دون عودة، بل طرد الشعراء من "جمهوريّته الفاضلة"، إلاّ أنّ حركة الفلسفة بقيت لصيقة بالشّعر. بدليل محاولة أرسطو التنظير له في كتابه "فنّ الشّعر". وعليه، "الجمهوريّة الفاضلة" لن تقوم لها قائمة من دون الشّعر.

لاحظ معي أنّ الشّعر تسرَّب إلى النصوص المقدّسة لدى الديانات الوضعيّة (الوثنيّة) والسماويّة أيضًا. صحيح أنّ بعض النصوص المقدّسة هجت الشّعر والشّعراء، لكن لم تستطع البراءة من فتنة وسحر هذا الجنس الأدبي. وحين بدأ النبي محمد يتلو على قريش سور وآيات القرآن، قالوا له: "هذا شعر"، و"أنت شاعر". وجهابذة قريش لم يطلقوا ذلك الحكم جزافًا، بل نظرًا لدور ووزن وأهميّة الشّعر في حياة العرب وقتذاك. وهم قادرون على تمييز الشّعر من غيره، حتّى لو لم يكن موزونًا مقفّى.

حاصله؛ لأنّني كردي ومفعم بالثقافة العربيّة، وعشتُ على أرض متنوعة الثقافات والحضارات كسوريا، من طبائع الأمور أن يكون الشّعرُ مبتدأ خطوي في حقول الأدب، وخبرُ هذا الخطو كان السرد الرّوائي. إذن، هي مسيرة تتعدد فيها طرائق التعبير عن الذات والآخر أدبيًا. والحياة العاديّة منها والثقافيّة، أسفارٌ لا تنتهي من التجارب. إذا أخفقت في تجربة ما لا يعني ذلك نهاية الأمر. وإذا نجحتُ في تجربة ما، لا يعني ذلك أن تصبح رهين وأسير ذلك النجاح.

بدأت في الشّعر، وأوّل جائزة أدبيّة حصلت عليها كانت في الجزائر سنة ٢٠١٠. اتجهت للرواية سنة ٢٠١٦، وأوّل جائزة (كتارا) كانت عن روايتي الأولى سنة ٢٠١٧. وما بين هذه النجاحين المتواضعين سبعُ سنوات من الكتابة ومحاولات الاجتهاد والخوض في التجريب، عن وعي وفهم وسعي نحو تجاوز ما كنتُهُ.

الأجناس الأدبيّة مكمّلة بعضها بعضًا، وأحيانًا تتداخل، وأحيانًا تستقلّ بذاتها. لكن، لا صراع أو خلاف بينها. الأجناس الأدبيّة شأنها شأن الفاكهة، متنوّعة الأشكال والمذاقات والفوائد. أو يمكن القول: شأنها شأن النساء، تتشابه في الخصائص البيولوجيّة، لكنها مختلفة ومتنوّعة المذاقات والأمزجة. الأجناس الأدبيّة يمكن اعتبارها "المكمّلات الغذائيّة" لحياة أيّ قارئ ثقافيًا وفكريًا وحتّى روحيًا. خوض تجارب أدبيّة متنوّعة امتحان لمهارات الكاتب وسعته المعرفيّة ومدى قابليّة طاقته الإبداعيّة على الإنتاج. وطالما الأدب والحياة يمنحاني فرصة التجريب والتعدديّة الأدبيّة، فلماذا أبخل على نفسي بمتعة خوض التجربة، واترك قرار الحُكم بالنجاح أو الفشل في تلك المحاولاتَ لحكمة وفطنة وبراعة الناقد الحصيف.

حوار: د. عبدالكريم الحجراوي